

المصطلح الديني ودلالته لدى ابن عاشور
بين المقاصد الشرعية والمقاصد الحضارية

The Religious Terminology and Its Significance in the Thought of Ibn Ashour: Between Legal and Civilizational Objectives

عبد القادر حسيني^{1*}

¹ المركز الجامعي نور البشير للبيض (الجزائر) a.hacini@cu-elbayadh.dz

تاريخ النشر: 2025/03/31

تاريخ القبول: 2025/02/26

تاريخ الإرسال: 2024/10/26

ملخص:

إن المصطلح الديني لدى ابن عاشور يتجاوز البعد التقليدي ليشمل أبعاداً اجتماعية وسننية، حيث يسعى من خلال منهجه الاستقرائي إلى تحليل العلل والقوانين التي تحكم الظواهر الدينية. تعكس مؤلفاته هذا التوجه، إذ يبرز فيها تكامل بين بعدين رئيسيين؛ الأول هو البعد القيمي النظري الذي يُعتمد على استنتاجات مستندة إلى دراسة معمقة للمفاهيم الشرعية، والثاني هو البعد التطبيقي الذي يتناول كيفية تطبيق هذه المفاهيم على الواقع المعاصر، وتُظهر جهود ابن عاشور في دراسة المصطلح الديني تفاعلاً ملحوظاً بين المقاصد الشرعية والمقاصد الحضارية. فهو يعمل على ربط النصوص الإسلامية بالواقع الاجتماعي والسياسي للأمة، مستهدفاً تعزيز المبادئ التي تُسهم في بناء مجتمع متماسك يُعلي من قيمة الأخلاق والاتحاد.

تستحق هذه الدراسة التعمق أكثر في تحليل كيفية توظيف ابن عاشور للأبعاد المختلفة للمصطلحات الدينية وكيفية تأثيرها على الواقع المعاصر، بالإضافة إلى دورها في إرساء دعائم الأخلاق الحميدة والوحدة المجتمعية، وإن الإضاءة على تلك الجوانب قد تسهم بشكل كبير في فهم أفضل لكيفية التعامل مع القضايا الراهنة بناءً على الفهم العميق للإسلام ومبادئه الأساسية.

الكلمات المفتاحية:

ابن عاشور؛ المصطلح الديني؛ المقاصد الشرعية؛ المقاصد الحضارية؛ الدلالة.

ABSTRACT:

The religious terminology to Ibn Ashour's goes beyond the traditional dimension to include social and Sunnah dimensions, as he seeks through his inductive approach to analyze the causes and laws that govern religious phenomena. His writings reflect this trend, as they highlight the integration between two main dimensions; the first is the theoretical value dimension that relies on conclusions based on an in-depth study of legal concepts, and the second is the applied dimension that addresses how to apply these concepts to contemporary reality. Ibn Ashour's efforts in studying religious terminology show a remarkable interaction between legal objectives and civilizational objectives. He works to link Islamic texts to the social and political reality of the nation, aiming to strengthen the principles that contribute to building a cohesive society that elevates the value of morality and unity. This study deserves to delve deeper into analyzing how Ibn Ashour employs the different dimensions of religious terms and how they affect contemporary reality, in addition to their role in establishing the foundations of good morals and societal unity. Shedding light on these aspects may contribute significantly to a better understanding of how to deal with current issues based on a deep understanding of Islam and its basic principles.

Keywords:

Ibn Ashour; religious terminology; legal objectives; civilizational goals; significance.

المصطلح الديني ودلالته لدى الطاهر ابن عاشور

1. مقدمة:

يكتسي منهج البحث المقاصدي صبغة فكرية معرفية، اتّجهت لها أنظار الكثيرين بغية حل أزمة التقاعس الفكري؛ التي أوشك أن يتخبط فيها البحث الأصولي خاصة، والفقهي عامة، من هذا المنطلق وجّه النظر وأعمل الفكر حمأة عدولٍ يزودون عن مورد الشريعة ما غلت بها، ويتمسكون بنهجها، ويعرفون بمقاصدها، جاءت هذه الدراسة لتعرّف بالمصطلح الديني المقاصدي عند علماء مقاصد الشريعة الإسلامية، واستجلاء الأبعاد الحضارية لهذا المصطلح انطلاقاً وتمثيلاً بمصطلح الحضارة الذي يحمل في طياته بعداً دينياً مقاصدياً اتّجهت إليه الأنظار والتوافقات، وبعداً معرفياً تنزيلاً مساهماً في نهوض الجامعة الإسلامية، وفق ما سجله يراع ابن عاشور، وتظهر أهمية هذه الدراسة من حيث: إبرازها لأهمية الدراسات الاجتماعية في النهوض

بحضارة الأمم، انطلاقاً من الكشف على أهمية المصطلح وتطوره الدلالي وتعلقه التنزيلي تحليلياً وتأويلاً، ثم التوصل إلى معرفة خصائص الحضارة الإسلامية انطلاقاً من مفهومها الدلالي، وبيان فائدة الحضارة الإسلامية والمقاصد الحضارية كمكارم الأخلاق كوصف شامل وعام في النهوض بواقع الأمة الإسلامي، توضيح المقاصد من مقصد دراسة مصطلح الحضارة الإسلامية عند ابن عاشور، ثم بيان مرتكزات المنهج الحضاري عند ابن عاشور، ولعل أهم ما يدركه من تحقق له الركون إلى معين شيخ المقاصد الإمام ابن عاشور، الذي اتسمت مؤلفاته بالدقة في الطرح، والتميز في التأصيل، والتعقل في التعليل، والموضوعية في التحليل، تبني فلسفة مصطلحية اجتماعية حضارية، منبثقة عن قيم الأمة ومثلها، وعقائدها ومبادئها، ومحاولة تنميتها، وهيكلتها، وتطويرها.

وقد اتسمت بالانقياد وفق المنهج الوصفي التحليلي في تحليل المرتكزات الذي تركز عليها الدراسة، ثم المنهج الاستقرائي التحليلي؛ الذي ينبئ عن استقراء وتتبع المصطلح الديني الحضارة أنموذجاً من الناحية المفهومية.

2. ابن عاشور وكتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام

1.2 ترجمة موجزة للشيخ ابن عاشور

هو السيد محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين، وجده للأب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وجده للأم العلامة محمد العزيز بوعتور¹، وفي سنة 1320 فاز في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية، وفي سنة 1324 ارتقى بمناظرة أيضاً، وفي سنة 1321 سعي مدرساً بالمدرسة الصادقية، مع بقائه مدرساً بالجامع الأعظم، وفي سنة 1325 سعي نائباً عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة العلمية، فابتدأ أعماله بإدخال نظم مهمة على التعليم بحسب ما سمح به الحال، وحرر يومئذ لائحة في إصلاح التعليم، وعرضها على الحكومة، فأمكن تنفيذ شيء منها، وأبقى كثير منها إلى فرص أخرى، كما سعى في إحياء بعض العلوم العربية بالجامع، وقد كان غالب أهل العلم يقتصر منها على النحو، وعلى المعاني والبيان، فأكثر من دروس الصرف في مراتب التعليم الثلاث، ومن دروس أدب اللغة، وشرع في تدريس "ديوان الحماسة" بنفسه، ولما تأسست لجنة النظر في تنقيح برنامج التعليم سنة 1329، كان الأستاذ ابن عاشور عضواً في هذه اللجنة، وهو الذي تولى تقرير حالة التعليم، وكان الاعتماد على لائحته المشار إليها آنفاً، وقدم لائحة في إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي منظم في خمس مدن من مدن المملكة: القيروان، وسوسة، وصفاقس، وتوزر، وقفصة، وفي تلك السنة سعي عضواً بالمجلس المختلط العقاري؛ وفي سنة 1331 أسندت إليه خطبة القضاء المالكي بعاصمة تونس، ودخل في هيئة النظارة العلمية التي تدير شؤون جامع الزيتونة، وفي سنة 1341 سعي مفتياً مالكياً بالديار التونسية، وعاد إلى التدريس بالجامع الأعظم وبالمدرسة الصادقية، وفي سنة 1343 عهد إليه بأمر النيابة عن الشيخ (باش مفتي)

رئيس المالكية، وفوض إليه مباشرة وظائفه الشرعية والعلمية، وفي سنة 1345 ارتقى إلى رتبة باش مفتي بالأصالة؛ أي: صار رئيساً للمجلس الشرعي المالكي، وتلك الخطة تخوله أيضاً أن يكون أحد رئيسي المعهد الزيتوني، واستمر على إلقاء دروسه في مواقيتها، مع أن خطته تخوله الانقطاع عن التدريس؛ إذ لم يبق معها في صف المدرسين، وفي جمادى الأولى سنة 1351 صدر الأمر الملكي بتلقيبه (شيخ الإسلام المالكي)، وفي جمادى الأولى من هذه السنة صدر الأمر الملكي بتعيين رئيس للنظر في شؤون التعليم بجامع الزيتونة يلقب بشيخ الجامع الأعظم؛ وأسندت هذه الرئاسة إلى الأستاذ صاحب الترجمة، وصرح له حضرة صاحب الجلالة أمير البلاد بأنه يعتمد عليه في إصلاح حال التعليم بجامع الزيتونة وترقيته، وقد احتفل بولايته شيخاً للجامع يوم السبت 25 جمادى الأولى من هذه السنة في محفل علمي جليل، وألقى فيه الأستاذ خطبة بسط فيها القول على أحوال الجامع، وبين مبدأه في إصلاحه، ونقلت هذه الخطبة البليغة الصحف التونسية.²

2.2 أهمية كتاب أصول النظام الاجتماعي في الإسلام لابن عاشور

يكتسي هذا الكتاب الموسوم أصول النظام الاجتماعي في الإسلام؛ أهمية بالغة كونه يتعرض لدراسة الوضع الاجتماعي للجامعة الإسلامية؛ هذا المصطلح الذي قصد به ابن عاشور المجتمع الإسلامي على عموم أطيافه، وتعدّد تشكلاته، وأصل هذا الكتاب مجموعة من المقالات التي نشرها الإمام الطاهر ابن عاشور في مجلة (هدى الإسلام) في سنتي 1935-1936 حاول فيها معالجة وضع الجامعة الإسلامية، التركيز على المقصد الأول من الخلافة؛ كما تطرّق إلى الآداب الإسلامية الجامعة، وأصولها وقواعدها، وأهمية المدنية الإسلامية، وناقش قضايا كبرى كقضية العدل والحرية والمساواة، بل أثرى مسألة مهمة كمسألة العمران بتحليل سوسيولوجي بديع، أسس فيه لمنهج الدراسة الاجتماعية وفق قواعد منطقية ابتداء من أسباب انتكاس أمة الإسلام، وصولاً إلى وسائل إصلاح الأحوال، فجاء هذا الكتاب على نسق ترتيبي يبتدأ فيه بالغرض الأسى من تأليفه للكتاب ينتهي بوسائل الإصلاح، مشيراً في هذا الربط إلى مبدأ مقصدي في جعل الأعمال بالنيات، فاستفتح كتابه بالربط بين روح الإسلام التي يبحث عنها ابتداءً وأثرها في تأسيس المدنية الصالحة، ومقدار ما ينتزع المسلم بها من مرشحات يهتدي بها إلى مناهج الخير والسعادة، مومياً بذلك إلى الحكمة الأسى التي لأجلها بعث الله بهذا الدين رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً للرسول الكرام عليهم الصلاة والسلام، ثم تطرّق بعد ذلك إلى أسباب الرقي وانتشار العمران، ليبين مقصد روح الإسلام في الارتقاء والصفاء، وتمثلات القيام بالأركان في انتشار العمران، وبعد ذلك تطرّق إلى جوهر ما تعيشه الجامعة الإسلامية من أسباب انتكاس، ليعالجها بوسائل إصلاح الأحوال في العاجل والآجل، مبيناً منهج الإصلاح من خلال النصوص الدينية والشواهد الشرعية التي تعضد قوله وتسدّد في جو ترتيبي تنسيقي بديع، اكتسى به هذا الكتاب أهمية بالغة في الدراسات الاجتماعية عموماً، سواء من خلال التحليل أو من خلال الربط المقاصدي بين الروح والأساس، أو من خلال معالجته للقضايا الاجتماعية.

تبرز أفكار الطاهر بن عاشور في مقدماته أهمية علوم اللغة العربية في فهم القرآن الكريم، حيث يعتبرها أساساً لا يمكن الاستغناء عنه لأي مفسر يسعى إلى الوصول إلى معاني الآيات بشكل دقيق، فهو يشدد على أن العربية ليست مجرد وسيلة للتعبير، بل هي الأداة الرئيسية التي تفتح آفاق الفهم الصحيح للمعاني القرآنية. إذ يؤكد ابن عاشور أن "القرآن كلام عربي"، مما يعني أن قواعد اللغة العربية تُعدّ ضرورية لفهم النصوص الدينية؛ "القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغاتهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين"³، إن بدون إلمام جيد بهذه القواعد، يتعرض المفسر لخطر الوقوع في الغلط وسوء الفهم، خاصة إذا لم يكن لديه ملكة لغوية طبيعية تعينه على إدراك دلالات الكلمات والعبارات القرآنية، كما يُشير إلى أهمية الرجوع إلى استعمال العرب المتبع في خطبهم وأشعارهم كوسيلة لفهم النصوص القرآنية. ويعتبر ابن عاشور هذا الاستخدام بمثابة التمثيل والاستئناس بفهم أهل اللسان، مما يعزز من قدرة المفسر على التعامل مع الآيات ذات الدلالات غير الواضحة.

إن تأكيد ابن عاشور على ضرورة دراسة علوم اللسان العربي يُظهر حرصه الكبير على تحقيق الفهم العميق للنصوص المقدسة وعلى تبني منهج علمي راسخ لتحقيق ذلك، وقد اجتمعت لديه المكنة العلمية في كتاب "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" وأظهر فيه المحاولات الفكرية التي سعت إلى استقرار النظام الاجتماعي الإسلامي بمزيج من البُعدين الديني والحضاري، في إطار فهم شامل للمنظومة الإسلامية، استخدم المعلم ابن عاشور مفاهيم ومصطلحات مبتكرة تجمع بين الدين والحضارة كمكوّنين أساسيين للنظام الاجتماعي، مع تسليط الضوء على أبعادهما التأويلية.

3. المقاصد الحضارية عند ابن عاشور

1.3 دلالة مصطلح الحضارة

إنّ المتتبع للشواهد اللغوية التي تكشف لنا عن التطور الدلالي لمُدول مصطلح الحضارة عبر الحياة اللغوية لهذا المصطلح ليلفته تقارب المعاني على سبيل الإجمال، فمصطلح الحضارة نجده يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصطلح البداوة، وهو ما يفسّر لنا البعد الاجتماعي في هذين المصطلحين، فكلاهما يدلّ على المجتمع وما يتعرّض لهذا المجتمع من تشابك المصالح، أو إنشاء المدن، أو تقارب العمران، ولعلّ الفارق بينها في الرّقي والانتكاس، والإقامة والمغيب، والحركة والسكون، فهذه الحقول الدلالية التي نجد هذا المصطلح يتقاطع فيها بمتعلقاته اللفظية ومدلولاته المعنوية، وإن أردنا أن نكشف عن حد الحضارة الإسلامية فإننا ننطلق من الماهية اللغوية إلى المتعلّق

الشرعي الذي تكفل بإصلاح ما أضيف لهذا المصطلح؛ فالحضارة الإسلامية في تعبير ابن عاشور هي حضارة انبثقت من العقيدة التي أحاط الإسلام بإصلاحها بأمرين عظيمين؛ هما: التفصيل، والتعليل، أما التفصيل فهو بأمور ثلاثة: أولها بتمام الإيضاح لسائر المسلمين، وبإعلان فضائح الضالّين، وبسدّ ذرائع الشّرك واجتثاث عروقه، وأما التعليل؛ فباستدعاء العقول إلى الاستدلال على وجود الله، وعلى صفاته، وأعظم ذلك: الاستدعاء إلى النّظر في النّفس، وهو أصل الحكمة⁴، فالحضارة الإسلامية هي حضارة أساسها في التعليل العقيدة الصحيحة، وتزكية النفس من رعوناتها، وأصلها في التفصيل المعاملة وفق أحكام الدّين، على سبيل الإيضاح والإعلان وسدّ الدّرائع والاجتثاث إعمالاً لنظرية الوازع، أما إذا تتبعنا كيفية عرض ابن عاشور لكتابه أصول النظام الاجتماعي للإسلام وتراتبية مقاصده في الكشف عن مفهوم الحضارة الإسلامية عنده؛ يتضح لنا أنّ المراد بالحضارة الإسلامية عنده هو: تلك المرحلة التاريخية المساوقة للنظام المنبعث من التفكير البشري المجاوب لمبادئ الشرع الحنيف، ومقتضيات الاعتقاد الصّحيح، والعمل الصالح، المحقق للجامعة الإسلامية في أزهر عصور أتباعها.

تعتبر رؤية الطاهر بن عاشور حول المصطلح "الحضاري" تجسيداً عميقاً لفهمه للدين كأداة فعالة في تشكيل سلوك الأفراد والمجتمعات. إذ يعكس مفهوم الحضارة لديه أكثر من مجرد مظاهر خارجية من تقدم مادي أو معمار، بل يمتد ليشمل القيم والمعايير التي تُنظم حياة الناس اليومية. في هذا السياق، يُبرز ابن عاشور كيف يمكن للقيم الإسلامية مثل العدل والتكافل والشورى أن تتفاعل مع الواقع المعاصر وتتحول إلى أنظمة قانونية واجتماعية تدعم بناء مجتمع متوازن ومزدهر، من خلال ذلك، يُظهر ابن عاشور أهمية الربط بين الدين والحياة العامة، حيث تعبر قوانين المعاملات التي يطرحها عن الانسجام الضروري بين التعاليم الإسلامية ومتطلبات العصر الحديث، فهذه القوانين ليست فقط تعبيراً عن الالتزام الديني، بل تمثل أيضاً استجابة حقيقية للتحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تواجه الأمة.

وعلى الرغم من التحديات المستمرة في العالم المعاصر، فإن دعوة ابن عاشور إلى تحويل المفاهيم الدينية إلى واقع عملي تمثل خطوة نحو إعادة إحياء الهوية الإسلامية وتعزيز روح والتآزر بين الأفراد والجماعات. إن اعتبار الحضارة تجسيداً لأسلوب حياة قائم على القيم الإيمانية والإنسانية كما يراها هو دعوة لمواجهة تعقيدات الحياة بروح إيجابية وق على البناء والمشاركة الفعّالة، في النهاية، تُسلط أفكار الطاهر بن عاشور الضوء على إمكانية تحقيق التوازن بين الأصالة والمعاصرة من خلال عملٍ جماعيٍّ مركّزٍ على المبادئ الدينية السامية والقواعد الأخلاقية المتينة. وهذا ما يجعله نموذجاً يحتذى به في التعامل مع قضايا الحضارة والنهوض بالمجتمعات وفقاً لرؤية شاملة تجمع بين الروحي والعملي.

2.3 المقاصد الحضارية

يلحظ المتتبع لعرض ابن عاشور لمسألة المقاصد الحضارية وأثرها في تأسيس المدنية الاجتماعية والتي عبر عنها بقوله الجامعة الإسلامية أنه خصّص هذه المسألة في أفنان حديثه عن كيفية بناء الجامعة الإسلامية، وربط مفهوم الحضارة بالتخطيط، والتخطيط مساق للتفكير والتفكير منبعث من التاريخ، وشاهد التاريخ البشري مؤكد لصلوحية الفكر الحضاري من عدمه، ثم إن ابن عاشور الذي ربط الحضارة بمبدأين أساسيين: مبدأ التاريخ، مبدأ الفكر، فجعل الحضارة عبارة عن نظام أساسه التفكير البشري، ومقاسه مساوقته للتاريخ، ثم استطرد في قسمة التفكير البشري إلى تفكيرين أساسيين: الفارق بينهما في موضوع التفكير فما كان موضوعه سامٍ مختص بموضوع وجود الله وصفاته سماه بالتفكير المقدس، وما كان موضوعه متعلق بتحصيل العلم فيما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة والآجلة، سماه بالتفكير الاجتماعي، ثم بنى الجانب المقاصدي للحضارة الإسلامية على أصليين أساسيين: الأصل الأول: يضمّ القيم الضابطة لتصرفات الناس في معاملتهم؛ ذكر منها: مكارم الاخلاق، العدالة، الإنصاف، الاتحاد، المؤاساة، أما الأصل الثاني: فتطرق فيه إلى القيم التي بها رعاية الأمة في مراتب الكمال والتقدم الحضاري؛ كالمساواة، العدل، وغيرها.

فابن عاشور يرى أنّ الأخلاق تمثل الأساس الذي تقوم عليه الحضارة، وأنّ الأخلاق ضامنة لسرّ بقاء الحضارة وصمودها، ومكارم الأخلاق أساس البناء، حيث يجعل لمكارم الأخلاق ثلاثة أسس تضمن وجودها، الأساس الأول: ملاحظة الوصايا، والأساس الثاني: الإدراكات بالفضائل، والأساس الثالث: الملاحظة المستمرة في كل الأعمال والأحوال والأكوان، ويجعل لهذه الأسس الثلاث ضامناً لبقائها بحصول الإلف في التخلق بالخلق ويطلق عليه مصطلح حكم المحبة، فحكم المحبة هو ترك الشهوة العارضة بالشهوة المتأصلة، وهو ضابط عند ابن عاشور في التمرن على الخلق محقق لحصول الإلف بالخلق والجفاء القديم لضعف الخلق.

3.3 المقاصد الشرعية

مقاصد الشريعة الإسلامية هي الغايات والأهداف المقصودة من التشريع، هذه الغايات أو الأهداف تكون إما مصالح تجتلب أو مفسدات تجتنب، إما دفعاً أو سداً؛ وهذه المصالح التي تجتلب، والمضار التي تدرأ إما أن تكون دنيوية أو أخروية، أو عامّة أو كليّة أو خاصة أو جزئية، هذه المقاصد الشرعية تورث المتشعب بالاطلاع عليها طمأنينة في القلب، وامتنالاً في الجوارح لتعلّقه بحقيقة معنى الأمر والنهي، ووجه المصلحة، والمقصد منهما، ويتناول هذا الفصل بياناً لحقيقة مفردات عنوان هذا البحث، والتّعرف على ما به تعرف المقاصد، ولعلّ من أهم المقاصد التي حمل عليها ابن عاشور كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام التعريف بالجامعة الإسلامية، وما توظيفه لمصطلح الحضارة كمصطلح ديني، وتحمله هذا المعين المقاصدي إلا لبعد معرفي آخر؛ وهو الذي عناه في أفنان سرده لما تقتضيه الحضارة الإسلامية التي وصفها بالجامعة الإسلامية، لتعلّقها

بالمجتمع من جهة، ولكونه خصّص الحضارة بمرحلة تاريخية مهمة تجاوب فيها الفكر البشري مع السياق التاريخي وقد سبق بيانه، فمثلاً إذا تتبعنا مقاصد الحضارة كمصطلح ديني مساوق للجامعة الإسلامية، نجد ابن عاشور مثلاً وهو يمثل لمقاصد الشريعة الإسلامية من مقصد مكارم الأخلاق مثلاً بمقصد تحقيق الأمن الاجتماعي؛ والأمن الاجتماعي ضروري لتنظيم المعاش؛ وإذا نظم المعاش وفق مقصد الأمن جاز لنا أن نصف المجتمع بمصطلح الحضاري، ومقصد مكارم الأخلاق كفيل بتحقيق مقصد هيبة الأمة، وإذا تحقق مقصد هيبة الأمة قامت حضارتها، وتحقق وصف الحضارة فيها، فتشكل المصطلح الديني عند ابن عاشور ينطلق من حملته المقاصدية الشرعية التي يحملها.

4. تحليل النتائج:

المصطلح الديني عند ابن عاشور يحاول به الخروج من مضايق الفهم إلى سعة التنزيل، وفق تصوّر الصّلاح والإصلاح؛ فهو يتّجه بمصطلح الحضارة إلى الأصل الديني الأول المحقق لمقصد الخلافة، بتحقيق العبودية لله وحده، وتشكلات هذا المقصد في الجانب المعاملاتي وفق نظرة معاصرة تربط الأصل بالفرع، فلم يفقد هذا المصطلح حملته الدلالية، ولم يقتصر على الحمولة المعرفية المعاصرة وفق النظرة التي تؤثر فيها رؤى فلسفية أو نظريات سوسيولوجية، بل ربط أصل المصطلح في الوضع العربي، بالمقصد الشرعي العام في صورة تنزيلية بديعة على الواقع الذي نعيشه، والفقهاء ابن عسره، ووليد مصره.

الرؤية الشرعية في نظم المقاصد الشرعية عند ابن عاشور متسلسلة ومحكمة الترتيب فمثلاً ابن عاشور في كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام يتشوف إلى عرض المقاصد الجزئية التي تتعلق بالمكلف وفق المجتمع الذي يعيش فيه، هذه المقاصد التي إن حقّق النظر فيها وصل إلى تحقيق المقصد العام من الجامعة الإسلامية، على خلاف نظره وطرحه في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية التي تشوف فيها إلى بسط النفس في المقاصد العامة، وعلى خلاف نظره مثلاً في كتابه أليس الصبح بقريب الذي تشوف فيه إلى إرساء مقاصد العلوم، وعلى خلاف نفسه الطويل في مؤلفه التحرير والتنوير حيث يتشوف إلى عرض المقاصد القرآنية، المقاصد الكونية، وغيرها كثير، فالإمام ابن عاشور له فكر ثاقب في مسألة نظم المقاصد؛ هذه المسألة التي تحتاج الكثير من التفصيل والتدليل. كتاب أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ذكر فيه ابن عاشور جانباً توصيفياً مهماً للمصطلح الديني الذي قد خرج كثير منه عن حيّز الإسلامية إلى الإنسانية ففقد الكثير كمصطلح الحرية، مصطلح العدل، ومصطلح الأخلاق، ومصطلح الحضارة، بينما ابن عاشور أسس لهذه المصطلحات المذكورة حيّزاً مقاصدياً جامعاً بين الحمولة الوضعية والحمولة الشرعية.

5- الثنائية التكاملية بين الدين والحضارة

يشدد ابن عاشور على أن البُعدين الديني والحضاري ليسا منفصلين عن بعضهما، بل هما في حالة تفاعل مستمر يؤدي إلى خلق مجتمع إسلامي راقٍ ومزدهر. هذه الثنائية التكاملية لا تُلغي الدين بوصفه نظامًا للاعتقاد والمبادئ، ولا تُبعد الحضارة عن الواقع والمدنية، إنما تضعهما في علاقة مستمرة يتم فيها تصحيح الأخطاء الحضارية من خلال القيم الدينية والتغيير الاجتماعي، ومن أهم تطبيقات هذا الربط المنهجي ما ذكره الكاتب حول التفاعل بين النصوص الشرعية والبناء المؤسسي الذي يراعي الخصوصية الزمنية والمكانية للمجتمعات [citation:6]. فالإسلام يشمل أصولًا مرنة تفرض الأسس الحضارية دون أن تكون جامدة أو متطرفة في تطبيقها. يرى ابن عاشور أن الأبعاد الدلالية للمصطلحين لا تتوقف عند مجرد تحديد الأطر العامة، بل تمتد إلى استخراج علاقة الإنسان بمجتمعه وبيئته، حيث يعيد الدين صياغة القيم الأخلاقية لتتداخل مع المعطيات الحضارية. هذا يشمل العلاقة بين الأعراق والإثنيات، يسميها الكاتب "الهويات الجزئية"، التي تتوحد تحت مظلة الشريعة الإسلامية دون إقصاء أو تفريق، كما أن الكتاب يتطرق إلى قضايا مثل التكافل الاجتماعي والبنية الأسرية بصفتهما جوانب حضارية متصلة مباشرة بالدين، ولكنه يدعو إلى تطوير هذه النظم لتواكب التطور التاريخي والمجتمعي دون تنازل عن مبادئها الأساسية.

في هذا السفر الكبير يربط ابن عاشور في بين المصطلحين "الديني" و"الحضاري" بطريقة تكاملية، تبرز الإسلام كدين يستهدف البنية الاجتماعية والنهضة الحضارية معًا. يعتبر المصطلح "الديني" أساس العقيدة والتشريع، بمعنى أنه نظام إلهي يُعنى بإصلاح الفرد والجماعة لضمان الاستقامة الروحية والسلوكية على هدي المنظومة السماوية، أما المصطلح "الحضاري"، فهو نتيجة مباشرة لهذا النظام الديني، حيث إنه يُترجم مبادئ الإسلام إلى نظم عملية تشمل الاقتصاد، السياسة، العلاقات الاجتماعية، والتقنيات التي تحرك عجلة التنمية البشرية.

ابن عاشور يوضح أن الإسلام بخلاف الأديان الأخرى لا يقتصر على مجال العبادات بل يرسم أسس النظام الاجتماعي الكامل، حيث إن الحضارة الإنسانية تُصاغ مستلهمة من تراكم التطورات البشرية التي توجهها القيم الإسلامية العليا، ومن هنا، يظهر مفهوم "تكميل النظام الديني بالنظام الحضاري"، والذي ينبثق من تطويع القوانين الإسلامية لتُصلح المجتمع وتساهم في تقدمه المادي والمعنوي دون تعارض بين الدين والمستقبل الحضاري للأمة.

في "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، يعيد الطاهر بن عاشور تعريف المصطلحين "الديني" و"الحضاري" ليس كمتناقضين، وإنما كمتكاملين ضمن رؤية شاملة للإسلام كنظام متكامل. يتمحور نظامه الدلالي حول تحويل القيم الدينية إلى مؤسسات حضارية تأخذ بعين الاعتبار حاجة المجتمع للتطور والاستمرار بشكل

عادل ومتوازن. بفضل هذا الفكر العميق، يثبت ابن عاشور أن الإسلام قادر على التأقلم مع تحديات الحاضر والمستقبل دون أن يفقد جوهر رسالته الأصلية.

5. خاتمة:

دراسة المصطلح الديني عند ابن عاشور من خلال مؤلفاته أمر ذو بال من حيث كونه يؤسس لمنهج مقاصدي جامع ينطلق من المصطلح ليؤسس حركية المقاصد من المصطلح، ويكشف عن وظيفية المقاصد في فكر ابن عاشور، ثم إنّ منهجية المقاصد الشرعية عند ابن عاشور؛ هي منهجية وظيفية، يُرى من منطلقها: أن أحكام الشرع مقصّدة بمصالح للمكلف في العاجل، والأجل، وأن الشريعة ناظرة في تشريعها إلى تحقيق مراد الخالق في تشريع الحكم، هذه المنهجية جمعت بين بعدين أساسيين: بعد قيمي تنظيري ناتج عن طول نفس في الاستقراء، وعميق بحث في التّنظير، وبعد تطبيقي تنزيلي على الوقائع والمستجدّات.

مصطلح الحضارة الإسلامية عند ابن عاشور؛ يشكل مرحلة سامية نبيلة من مراحل تجاوب المسلمين مع منهج الله تعالى، ونظامه الذي أوحاه إلى خاتم رسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، من مقاصد دراسة مقصد الحضارة عند ابن عاشور، أنها تسهم في تأسيس المدنية الصالحة، وتصوّر للدارس معظم مبادئ الدين. وعليه يمكننا طرح بعض التوصيات في ختام هذا البحث أهمها:

ضرورة إيمان النظر وإعمال الفكر في مناهج علمائنا، وتشويرها، خاصّة أئمة مقاصد الشريعة الإسلامية، لأنّ هذا العلم الشرعي ضروري في الإجابة على كثير من القضايا المستجدة المعاصرة. ضرورة استغلال علم المصطلح والدراسة المصطلحية في الكشف عن كثير من العلوم التي تكتنّزها هذه المصطلحات، وتحقيق التقارب المعرفي بين كثير من المعارف والعلوم المتمايضة.

6. قائمة المراجع:

المؤلفات

- 1- ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج 1
- 2- إياد خالد الطباع، محمد الطاهر بن عاشور علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، دار القلم، ط 1، دمشق، 2005
- 3- بلقاسم غالي، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم؛ محمد الطاهر بن عاشور، دار ابن حزم، بيروت، 1996.
- 4- الرّيسوني، أحمد، محاضرات في مقاصد الشريعة الإسلامية، دار الكلمة، ط 3، 2010.
- 5- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ)، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر دط، دت.

6- مخلوف؛ محمد بن محمد بن عمر بن علي بن سالم (ت1360هـ)، شجرة النور الزكية، ت: عبد الحميد خيالي، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، (1424هـ-2003م)، رقم: 1572، ج1.

المقالات

1- حسين المزعوي، من أجل ترجمة متكاملة لحياة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مجلة الهداية، عدد6، 1999.

7. هوامش البحث:

* عبد القادر حسيني

¹ هو: محمد الطاهر؛ أبو عبد الله: تولى القضاء في رجب: 1267هـ، ألف حاشية على شرح القطر، وشرحا على البردة، وتقاييد على حاشية عبد الحكيم على المطول، تقلد خطة الإفتاء، نقابة الأشراف، وغير ذلك، ينظر: مخلوف؛ محمد بن محمد بن عمر بن علي بن سالم (ت1360هـ)، شجرة النور الزكية، ت: عبد الحميد خيالي، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، (1424هـ-2003م)، رقم: 1572، ج1، ص560

² ينظر: المرجع نفسه، ص154 وما بعدها / ينظر: إياد خالد الطباع، محمد الطاهر ابن عاشور علامة الفقه وأصوله، والتفسير وعلومه، دار القلم، ط1، دمشق، 2005 م، ص30-39، ينظر: بلقاسم غالي، من أعلام الزيتونة: شيخ الجامع الأعظم؛ محمد الطاهر ابن عاشور، دار ابن حزم، بيروت، 1996، ص17-18، ينظر: حسين المزعوي، من أجل ترجمة متكاملة لحياة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، مجلة الهداية، عدد6، 1999، ص54-55، ينظر: الرئيسوني، أحمد، محاضرات في مقاصد الشريعة الإسلامية، دار الكلمة، ط3، 2010، ص94 إلى 96

³ ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، م، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج1، ص18.

⁴ ينظر: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت1393هـ)، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الدار التونسية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر دط، دت، ص7